مؤتمر التاريخ المعاصر لحوض المتوسط

دكتور صلاح العقاد

انعقد في مدينة نيس بفرنسا مؤتمر « تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٣٩ » ، وذلك في المدة من ٢٨ إلى ٣١ مارس سنة ١٩٦٨ ، واشترك فيه لفيف من أساتذة التاريخ المعاصر من جامعات فرنسا وإيطاليا وأسبانيا واليونان وبريطانيا وألمانيا . وحضرت هذا المؤتمر ممثلاً لجامعة عين شمس ، ولم يأت المؤتمر من الجامعات العربية الأخرى سوى السيد / محفوظ قداش رئيس قسم التاريخ في جامعة الجزائر ، إلا أنه لم يقدم بحثاً في الندوة .

وقد ألقى في المؤتمر أربعة عشر بحثاً خصص ست منها لتاريخ المغرب في الفترة المذكورة ، وأتت أسبانيا في الدرجة الثانية من الأهمية إذ تناولت ثلاث أبحاث موضوعات متصلة بتاريخ أسبانيا المعاصر دار بعضها حول الحرب الأهلية التي أدت بفرانكو إلى السلطة ، وخصص أحد الأبحاث للحركة الوطنية في اليونان ودور الكنيسة الأرثوذوكسية فيها . وتناولت الأبحاث الأخرى موضوعات عامة مثل السياسة الإنجليزية في حوض البحر المتوسط حوالى سنة ١٩٣٠ ، ودور سكان كورسيكا في حركة التوسع الفرنسي فيما وراء البحار ، وعوامل تقلص السكان في ساحل الإدرياتيك .

وتدل نسبة الأبحاث المخصصة للمغرب على استمرار اهتمام فرنسا بهذا الموضوع حتى بعد استقلال أقطار شمال إفريقيا الثلاث . وفي الماضي كان يظن أن الإهتمام بالدراسات المغربية يهدف فقط إلى خدمة الإستعمار . الذى حدث هو أن هذه الدراسات انتعشت على عكس ما كان متوقعاً بعد إنتهاء الإستعمار وصارت أكثر موضوعية . وفي سنة ١٩٦٤ تأسس مركز لدراسة الدول الإفريقية الواقعة في حوض البحر المتوسط .

Centre Des Études de l'Afrique Mediterranienne

الذى ألحق بجامعة إكس آن بروفانس . ويهم القارىء العربي أن يعرف أن وثائق تاريخ الجزائر الحديث نقلت بأجمعها إلى هذا المركز قبيل انسحاب فرنسا سنة ١٩٦٢ وأثار هذا الموضوع خلافات مع الحكومة الجزائرية . وعندما تحدثنا في هذا الشأن مع روجيه ليتورنو ، مدير المركز ، ذكر لنا كيف أن وجود الوثائق تحت إشراف باحثين متخصصين يخدم تاريخ الجزائر بصورة أفضل . وقد أجبنا على ذلك بأنه يوجد بين المؤرخين العرب عديد من الأساتذة ممن يعرفون تبويب الوثائق والإستفادة منها ، فأقر على كل حال بأن الحكومة الفرنسية قبلت إعادة الوثائق المتعلقة بالعهد السابق على الإحتلال أى قبل سنة ١٨٣٠ ، أما الوثائق المتعلقة بعهد الحكم الفرنسى فقد اعتبرتها جزءاً من التراث الوطنى وأسمتها وثائق عهد السيادة . كذلك علمنا بأن المركز صور جميع الوثائق المتعلقة بالعصر العثماني قبل إعادتها إلى الحكومة الجزائرية .

تناولت الأبحاث الخاصة بالمغرب الموضوعات الآتية : الفكرة العربية لدى الحركات الوطنية — الحزب الشيوعى الجزائرى ، صدى الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر في الرأى العام الفرنسى ، شئون المغرب في الصحف البولندية وقد ألقاه مستشرق بولندى ، أثر استعمار ليبيا في الحركة الفاشستية ، جهود الطليان في التنقيب عن النفط قبل ١٩٣٩ .

أثار الموضوع الأول الذى ألقيناه في المؤتمر مناقشات كثيرة . وقد عرضنا فيه لعوامل الاجتذاب الثلاث التى وجهت الحركات الوطنية في تونس والجزائر والمغرب الأقصى في فترة ما بين الحربين ، وهذه العوامل هى التضامن العربي ، التضامن الإسلامى ، وفكرة الوحدة المغربية . وبينا كيف أن فكرة التضامن الإسلامى كانت هى السائدة في فترة ما بين الحربين ، غير أن الفكرة العربية أخذت تنمو بعد ذلك . وتسير فكرة المغرب الكبير جنباً إلى جنب مع الفكرة العربية باعتبار أن الفكرة العربية ليست هدفاً نهائياً ، بل مجرد مرحلة نحو الوحدة العربية . وخلصنا إلى أن هذه الأقطار كانت تغرى الوطنيين أثناء عهد النضال ضد الاستعمار ، أما بعد الاستقلال فقد

سادت النزعة الإقليمية لإنها تخدم المصالح الشخصية لهؤلاء الذين تسلموا السلطة .

لاحظنا أثناءالمناقشة أن المختصين الفرنسيين يميلون إلى الاعتقاد بأن العنصر الإسلامى مازال هو الأقوى في المفاهيم الوطنية لدى المغاربة ، واستشهدوا على ذلك بتصريح بن بيلا عند دخول تونس بُعيد استقلال الجزائر إذ قال «نحن مسلمون » وكررها ثلاث مرات وصحح المندوب الجزائرى هذه الواقعة قائلاً بأن العبارة التى كررها بن بيلا ثلاث مرات هى « نحن عرب » .

كان البحث الثاني الذى أثار الاهتمام هو ذلك الذى ألقته مدام آني راى وهى مناضلة شيوعية سابقة انفصلت عن الحزب سنة ١٩٥٩ احتجاجاً على تخاذله من الثورة الجزائرية ، وكان الاتجاه السائد عند مناقشه البحث هو أن الحزب الشيوعى أفاد الحركة الوطنية . في مرحلة نشأتها وذلك في المدة ما بين سنة ١٩٢٤ ، سنة ١٩٣٦ ، وترجع هذه الإفادة إلى إفساح المجال أمام الشباب من عمال ومثقفين لكى يتدربوا على العمل الحزبي المنظم وعلى أعمال الخلايا السرية . غير أن الحزب عارض الأفكار الوطنية التى تؤكد على شخصية الجزائر العربية الإسلامية وأيد فكرة الاندماج قائلا بأنه يجب على الطبقة العاملة الجزائرية أن تتعاون مع الطبقة العاملة الفرنسية لإسقاط النظام الاستعمارى الرأسمالى فحسب ، وليس حق السيادة الفرنسية .

وكان بين الجزائريين المثقفين من يتصور إمكان الاندماج في مجتمع فرنسى تقدمى ، ولكن حتى هذا العدد المحدود من المثقفين الجزائريين غير رأيه بعد تولى حكومة الجبهة الشعبية الحكم في فرنسا سنة ١٩٣٦ وقد انكشف على إثرها حقيقة موقف الحزب الشيوعى الفرنسى . ومن المعروف أن الحزب الشيوعى الجزائرى كان مجرد فرع من الحزب الأول . لذلك قرر مصالى الحاج ، وهو زعيم نقابي ، أن يؤسس حزباً جزائرياً محضاً ، وهو حزب الشعب الجزائرى الذى امتص الشيوعيين الجزائريين وأبعدهم بذلك عن التنظيم الدولى ونتج عن هذا الوضع أن اصطدم الحزب الشيوعى الفرنسى والفرع الجزائرى منه اصطداماً عنيفاً مع أهم عنصر وطنى في ذلك العهد وهو

حزب الشعب الجزائري . ومن الأبحاث القيمة ذلك الذي ألقاه الأستاذ مارتل ، أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة مونبلييه ، وبالمناسبة نشير إلى أن الوفد الفرنسي ، وهو أكبر الوفود من حيث العدد والمميزات العلمية ، أتي معظمه من جامعات الجنوب : نيس ومارسيليا وتولوز ومونبلييه . وتعتبر جنوب فرنسا ملجأ المستوطنين الذين غادروا المغرب بعد الاستقلال . وكثير من الأساتذة الذين عملوا في السابق في جامعات الجزائر وتونس والرباط نقلوا إلى الجامعات المذكورة . وقد كشف مارتل عن حقيقة جديدة وهي أن القواد الإيطاليين في ليبيا أثناء الحكم الفاشستي كانوا ممن يعطفون على الملكية ، وأنهم لذلك لم يبذلوا جهوداً مخلصة في الحرب العالمية الثانية ضد الانجليز . وقد صار هؤلاء القواد بعد سنة ١٩٤٣ عُمد الحكومة الملكية الإيطالية التي انضمت إلى الحلفاء وحاربت ضد الفاشستيين ، ونظراً لاهتماماتنا السابقة بموضوع الحرب العالمية الثانية فقد انتهزت الفرصة لأتعرف على مصير الوثائق الإيطالية الخاصة بالحرب، إذ سبق لنا أن اشتغلنا في الوثائق الألمانية التي استولى عليها الحلفاء ونشروها فيما بعد في عدة أجزاء ، والتي تعتبر من أهم مصادر التاريخ المعاصر . وقد أجابني الأستاذ مارتل بأنه كان مكلفاً بالفعل ضمن لجنة من الخبراء اختارتها الحكومة الأمريكية لتدريس وثائق العهد الفاشستي التي استولى عليها بعد الحرب والتي نقلت إلى الولايات المتحدة ، ومن المنتظر أن تنشر قريباً وهي على خلاف الوثائق الألمانية تتضمن معلومات هامة عن العالم العربي .

كان من المتوقع أن تثار قضية فلسطين نظراً لوجود الملحق الثقافي الإسرائيلي في المؤتمر ، غير أنه لم يشترك في أعماله ، ومع ذلك فقد لمس الأستاذ بيل من جامعة ليفربول هذا الموضوع في ثنايا بحثه عن السياسة الانجليزية في حوض المتوسط ، فذكر أن الانتداب على فلسطين أضر بمصالح بريطانيا الاستراتيجية والاقتصادية لأنه كلفها أعباء مالية كثيرة ووجه جزءاً من قواتها للمحافظة على الأمن بعد أن اتسعت الاشتباكات بين اليهود والعرب خاصة في الثلاثينات . فبادر بطرح هذا السؤال : كيف قبلت بريطانيا الانتداب إذا كان ذلك يضر بمصالحها ؟

وأجاب الأستاذ بيل بأن كثيرين من الخبراء نصحوا لويد جورج بعدم قبول الانتداب ، غير أنه كان ضعيف الشخصية فرضخ لوزير الخارجية السابق بلفور الذى كان يعلن دون مواربة أنه صهيوني مقتنع . واستطعنا بعد مناقشات طويلة أن نخرج بحقيقة هامة وهى أن الصهيونية تتعارض مع مصالح كل من بريطانيا وفرنسا القومية وذكّرت ببعض الكتب التى خصصت لهذا الموضوع مثل الكتاب الفرنسى المشهور الذى وضعه دريموند عن سيطرة اليهود في المجتمعات الأنجلوسكسونية .

وفي ختام المؤتمر حاول الأستاذ أندريه نوشى ، وهو أستاذ التاريخ الحديث بجامعة نيس وصاحب فكرة المؤتمر والداعى له ، حاول أن يستخلص صورة عامة تدلل على وجود روابط بين شعوب البحر الأبيض المتوسط : القسم العربي منه والأوربي . فقال : كما أن الفكرة الإسلامية كانت دافعاً للحركة الوطنية في المغرب فقد بين لنا بحث المندوب اليوناني دور الكنيسة الأرثوذكسية أيضاً في الحركة الوطنية مما يدل على أهمية العامل الدينى لدى شعوب البحر المتوسط كذلك أشار إلى البحث الذى تناول طرق الرى في أسبانيا ، وكيف أن الجزائر ، التى تعيش في ظروف مناخية وجغرافية مشابهة ، استفادت من تطور هذه الوسائل . ثم أشار إلى ذلك الاهتمام الخاص الذى توليه جامعات جنوب فرنسا بقضايا البحر المتوسط مما يذكرنا بالعهود القديمة حينما كان هناك تراث حضارى مشترك للشعوب التى تسكن على سواحل هذا البحر وكان الناس يتحدثون عن حضارات متوسطية ، وحتى الحروب التى نشبت بين شعوب المتوسط في العصور الوسطى كانت إحدى الوسائل لتبادل المعرفة وألوان الحضارة المختلفة تماماً كما كانت التجارة وسيلة لهذا التبادل في عهود السلام .